

هدى السلف الصالحين . في نصيحة السلاطين

دعونا العلماء في الجزء الماضي الى نصيحة السلاطين واننا نذكركم في هذا الجزء ببعض ما يروى عن علماء السلف في ذلك

جعل الامام الغزالي الباب الرابع من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصا بأمر الأمراء والسلاطين ونهيبهم وقال في أوله مانصه: «قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وان أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالتقهر في الحمل على الحق بالضرب والمقوبة . والجانز من جهة ذلك مع السلاطين الرتبان الاوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع والتقهر فليس لأحد الرعية مع السلاطين فان ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد عنه من المذور أكثر . وأما التخشين في القول كقوله: ياظالم يا من لا يخاف الله: وما يجري مجراه فذلك ان كان يحرك فتنة بتعدى شرها الى غيره لم يجز وإن كان لا يخاف الا على نفسه فهو جائز بل مندوب اليه فقد كان من عادة السلف التمرض للأخطار والتصريح بالانكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتمرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (٢) ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال «قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق» (٣) ولما علم المتصلبون في الدين ان أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وإن صاحب ذلك اذا قتل فهو شهيد كما وردت به الاخبار قدموا على ذلك

(١) الحديث قول المافظ العراقي في تخريج أحاديث الأحياء رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وذكر له شارح الأحياء روايات أخرى (٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد وله الفاظ وطرق ذكرها الشارح

موطين أنفسهم على الهلاك محتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتمسين لما يبذلونه من مهجهم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل عن علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين من كتاب الحلال والحرام هـ ما كتبه الفزالي في مقدمة الباب

أقول قوله انه ليس لأحد الرعية التصدي لمنع السلطان عن المنكر بالتهر صحيح لا لما يترتب عليه من الفتنة فقط بل هناك علة أخرى هي أظهر وأولى بالتقديم وهي أن إكراه الآحاد من الرعية لسلاطين محال وطلبه عبث لا يأتي من عاقل ولهذا المعنى فرض الله تعالى الدعوة إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمة تتألف وتستمد لذلك كما بينا في الجزء الماضي والأمة تستمد لكل شيء بقدره وقوة الامة أشد بالانحداد والاجتماع من قوة السلطان لأن قوته منها وقوتها من ذاتها ويد الله مع الجماعة . وسنعود في فرصة أخرى إلى التفصيل في هذه المسألة . فإنا إنما نقصد الآن إلى بيان شيء من هدي السلف في نصيحة الامراء والسلاطين تذكرا للعلماء وكشفا للقراء عن الفرق بين حالنا اليوم وحال سلفنا أيام كانت الامة عزيزة قوية والدين راسخا معمولا به

ندع مما أوردته الفزالي من هدي السلف في هذا الباب آثار الصحابة لتلايقال انهم لا يقاس عليهم في بذل أرواحهم في سبيل الحق وان من كان يغلظ على عمر بن الخطاب في الحق كان آما عقوبته ليقينه بعداه ودينه ونذكر شيئا مما أوردته عن بعدهم قول « وعن الاصمعي قال دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريرته وحواليه الاشراف من كل بطن وذلك بمكة وقت حجه في خلافته فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتماهده بالعمار ، واتق الله في أولاد المهاجرين والانصار فانك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل اشعور فانهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المساهين فانك وحدك المسؤول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تفعل عنهم ولا تغلق

بابك دونهم فقال له أجل ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك فقال يا أبا محمد
إنما سألنا حاجة لعبرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال مالي إلى مخلوق حاجة
ثم خرج فقال عبد الملك هذا وأبيك الشرف «
أقول هذا نصيح علماء الدين لمثل عبد الملك الذي كان أول معان للاستبداد
في الإسلام حتى قال علي المنبر : من قال لي اتق الله ضربت عنقه : وابن ملوك
زماننا من عبد الملك في سياسته وفتوحاته ألا أنهم احق بالنصيحة منه ولكن أين
الناصحون ! قال الغزالي

« وقد روي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما قف على الباب فإذا
مر بك رجل فأدخله علي ليحدثني فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن
أبي رباح وهو لا يعرفه فقال يا شيخ ادخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك
فدخل عطاء على عبد الملك وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد
قال السلام عليك يا وليد قال فغضب الوليد على حاجبه وقال له ويحك أمرتك أن
تدخل إلى رجلا يحدثني ويسأرنني فأدخلت إلى رجلا لم يرض أن يسئرنني بالأمم
الذي اختاره الله لي (بني أمير المؤمنين) فقال له حاجبه ماسر بي أحد غيره ثم
قل لعطاء اجلس ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له بلغنا أن
في جهنم واديا يقال له هبيب أعده الله لكل امام جائر في حكمه فصمق الوليد
من قوله وكان جالسا بين يدي عتبة المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس
منفصيا عليه . فقال عمر لعطاء قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع
عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له يا عمر إن الأمر جد فجد . ثم
قام عطاء وانصرف فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز أنه قال مكثت سنة أجد ألم
غمزه في ذراعي

« وروى عن ابن أبي عائشة أن الحجاج دعا بفتها البصرة وفتها الكوفة
فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل فقال الحجاج مرحبا
بأبي سعيد إلى التي ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فعمد عليه فجعل
الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال منه

ونلنا منه مقاربة له وفرقا (أي خوفا) من شره والحسن ساكت عاضاً على إبهامه فقال يا أبا سعيد مالي أراك ساكناً قال ما عسيت أن أقول قل أخبرني برأيك في أبي تراب قال سمعت الله جل ذكره يقول (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لتعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذي هدى الله وما كان الله ليضيق إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم) فملي ممن هدى الله من أهل الإيمان فأقول ابن عم رسول الله وختمه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا أن يحول بينه وبينها وأقول إن كانت ليلي هناة فالله حسيبه ، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن الدبرير منفضياً فدخل بنا خلفه وخرجنا

« قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره فقال اليك عني يا عامر يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقت أن سئت فصدقت أو سكت فسلمت . قال عامر يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها . قال الحسن فذاك اعظم في الحجّة عليك وأشدّ في التبعة .

« قال وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال أنت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال نعم قل ما حملك على هذا ؟ قال ما أخذ الله على العلماء من الموائيق « لبيئته للناس ولا يكتبونه » قال يا حسن أمك عليك لسانك وإياك انت يبلغني عنك ما أسكره فأفرق بين رأسك وجسدك . »

أقول وقد ساق المصنف هذه الحكاية في كتاب ذم الجاه والرياء مطولة بما هو أبلغ في المهرة والفرق بين علماء الدين الذين لا يخافون في الله لومة لائم وعلماء الدنيا الذين يتقربون إلى الأمراء والسلاطين بما يرضيهم من سخط الله تعالى قال « روي عن سعيد بن أبي مروان قال كنت جالساً إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر فدخل

المسجد على برذونه (١) فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حائقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها ثم ثنى وركه فترك وهشي نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تخافى له عن ناحية بجاءه قول سعيد وتجايفت له أيضاً عن ناحية بجاءه حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم (٢) فما قطع الحسن كلامه . قول سعيد قتلت في نفسي لأبون الحسن اليوم ولا نظرن عمل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه ان يزيد في كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج ان ينقص من كلامه . فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحو مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على مكب الحسن ثم قال صدق الشيخ ويرا فليكن بهذه المجالس وأشباهاها فاتخذوها خلقاً وعادة فانه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها . قال ثم افتقر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق ققام . فجاء رجل من أهل الشام الى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال عباد الله المسلمين ألا تعجبون اني رجل شيخ كبير واني أغزو فأكف فرماً وبفلا وأكف فسطاطاً وان لي ثلاث مئة درهم من البطاء وان لي سبع بنات من العيال : فشكا من حاله حتى رق له الحسن وأصحابه بالحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال ما لهم قتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا وما ل الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابية (أي العالية اشترية) وعلى البغال السبابة واذا أغرى أخاه أغراه طاوياً راجلاً : فما افتقر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدده فقام رجل من أهل الشام كذب جالساً

(١) لعل المسجد كان لا يزال مفروشاً بالزمل على طريقة الصدر الأول أو لعل الحجاج دخل بالبرذون الى صحنه دون موضع الصلاة (٢) يريد بقوله يتكلم به كل يوم انه يتكلم بمثله في الوعظ وبيان الحق كما يعلم من لاحق الكلام

الى الحسن فسعى به الى الحجاج وحكى له كلامه الذي تكلم به (١) فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الأمير فقام الحسن وأشفقتنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع الى مجلسه وهو يتبسم وقلبا رأيته فأغرافاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالأمانة (٢) كأنكم تظنون أن الحياة ليست الا في الدينار والدرهم ان الحياة أشد الحياة ان يجالسوا الرجل فطمئن الى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا الى شرارة من نار ، اني أنيت هذا الرجل فقال أقصر عليك لسانك وتو لك اذا غزا عدو الله كذا وكذا واذا غزا أخاه أغزاه كذا لا أبالك نعرض علينا الناس أما أسأ على ذلك لأنهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عني . وركب الحسن حمرا يريد المنزل فيدنا هو يسير اذا التقت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء والا فارجموا فما بقي هذا من قلب العبد

قال الغزالي بعد ايراد هذا الاثر : فهذه العلامات وأمثالها تبين سريرة الباطن ومما رأيت العلماء يتفايرون ويتحاسدون ولا يتعاونون ولا يتعاونون فاعلم انهم قد اشعروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين . اه

أقول وان حاجتهم الى التعاون في هذا العصر أشد منها في عصر الحجاج فان المسلمين اليوم على خطر وأمرؤهم وملوكهم لا يندكرون مع ملوك بني أمية وامرائهم حتى الحجاج فأولئك قد دنحوا الممالك وهؤلاء أضاعوها وأولئك حفظوا من الشريعة ما عدا جعل أمر المسلمين شري بينهم فأنهم جعلوه ملكا قوامه العصبية وهؤلاء أضاعوا الشريعة الا قليلا هو على خطر من حملوه وسوء ادارتهم ، وأولئك

(١) يشك ان يكون الحجاج هو الذي أوعز الى الشاميين بمثل ما فعل لا يعلم هل تدفع مجاملته للحسن شيئا من كلامه فيه وفي حكومته (٢) الجملة حديث رواه العسكري وابن المبارك والخراطي بهذا اللفظ عن ابن عباس وزواه غيرهم بالفاظ أخرى

كانوا يمدلون في الأحكام ويساوون الناس في الحقوق فلا يظلمون إلا من نازعهم في أصل سلطنتهم وهؤلاء يظلمون في كل شيء، ويبيعون الحقوق بالرشوة، وقد رأيت أن من علماء السلف من كان يلاحظ لهم وينفر الناس من أصل سلطنتهم ويضيق أئدهم سفكا للدماء كالحجاج أفلسنا أخرج الآت إلى ذلك، الخلاصة أنه لا بد من اجتماع العلماء وتعاونهم على فرضة النصيحة مادام في القوس نزع وفي السلطة الإسلامية رفق.

(للآثار بقية)

التعصب وأوروبا والاسلام

للإسلام دول تحالف دول الحقائق نارة وتخالفها تارة، ورب خلاف يجر إلى خلاف وحلاف ينتهي بخلاف، قديتهم الخليلي بالعشق حتى تجعله التهمة عاشقا، وقد ينكر الكذب الكذب حتى يكون صادقا، مرت على الشرق الاحقاب والقرون، ودرجت فيه الأجيال والقرون، وهو كما تعلم مشرق الاديان، ومنبت جميع أخصب الانسان، ولم يقع فيه بين المختلفين في الدين المتجاورين في البيئة من الفلوفى التعصب مشر معشار ما وقع من أهل أوروبا الذين اتحدوا باسم الصليب على ابادنة المسلمين أو ما وقع من تعصب نصارى هذه القارة على الوثنيين فيها بل ولا عشر مشار ما وقع من أهل المذاهب النصرانية بعضهم مع بعض فأوروبا مشار بر كان التعصب الديني في الأرض كما بينا ذلك في مقالات نشرت في أعداد السنة الأولى لما رجعت دول أربا المتحدة من حرب الصليب في الشرق مقلوبة على أمرها عاجزة عن بلوغ منتهى ما حددته لها تعصبها عالة أنها دون المسلمين في القوة الحربية والقوة العلمية والادبية أخذت تستعد في العلم والعمل فكان خذلانها في تلك الحرب مبدأ حياة جديدة لها على حين كانت حياة المسلمين السابقة أخذت بالضعف والتحول فاستفادت من الانكسار، ما لم تستفد من الاتصار، وما زالوا يرتقون فيما تركناه لهم من علم وصناعة واجتماع واعتماد، ونحن نتدلى بالجهل والكسل والتفرق والانقسام، حتى دالت لهم الدولة، وعادت لهم الكرة، فسادوا علينا واستولوا على أكثر بلادنا وقد عاملنا أكرمهم بالشدة والقسوة حتى ضبعت بعض دولهم